UNIVERSITÉ PARIS-SORBONNE
COURS DE LITTÉRATURE ARABE MODERNE - LICENCE 3
2017
SUJET 1- VOYAGEURS ARABES A PARIS AVANT L'AGE DU ROMAN

RECUEIL DE TEXTES :

1/ Rifāʿa al-Ṭahṭāwī, Taḫlīṣ al-ibrīz fī talḫīṣ Bārīz

2/ Fāris al-Šidyāq, Al-sāq ʻalā l-sāq

3/ Idrīs al-ʻAmrāwī, Tuḥfat al-Malik al-ʻAzīz bi-mamlakat Bārīz

4/ Muḥammad al-Muwayliḥī, Ḥadīṯ ʻĪsā b. Hišām

ÉLÉMENTS BIBLIOGRAPHIQUES :

Saʿīd Binsaʿīd al-ʻAlawī, *Urubbā fī mir'āt al-riḥla*, Rabat, Ǧāmiʿat Muḥammad al-ḫāmis, 1995.

Gilbert Delanoue, Moralistes et Politiques musulmans dans l'Egypte du XIXe siècle, Le Caire, IFAO, 1982.

Isabelle Larivée, "Regard sur l'autre: moralite et compassion", *L'interculturel: reflexion pluridisciplinaire Etudes Littéraires Maghrébines*, Paris, L'Harmattan, 1995, pp.97-101.

Tarek El-Ariss, *Trials of Arab Modernity, Literary Affects and the New Political,* New York, Fordham University Press, 2013, chapitres 2 (Fantasy of the Imam) et 3 (Aversion to Civilization).

Susan Gilson Miller, *Disorienting Encounters, Travels of a Morrocan Scholar in France 1845-1846, The Voyage of Muḥammad al-Ṣaffār*, Berkeley, University of California Press, 1992.

Mattityahu Peled, "The Enumerative Style in Al-Sāq ʻalā l-Sāq", Journal of Arabic Literature 22 (1991), pp. 127-145.

TEXTES À LIRE (UN AU CHOIX) :

Al-Ṭayyib Ṣāliḥ, *Mawsim al-hiǧra ilā l-šamāl*, 1967, toutes éditions, traduction Abdelwahab Meddeb, *Saison de la migration vers le nord*, Paris, Sindbad.

Tawfīq al-Ḥakīm, *ʻUṣfūr min al-šarq*, Le Caire, Maktabat Miṣr, 1937, traduction Horus Schenouda, *L'Oiseau d'Orient*, Paris, Nouvelles Editions Latines, 1960.

ʻAlā' al-Aswānī, *Šīkāgū*, Le Caire, Dār al-Šurūq, 2007, traduction Gilles Gauthier, *Chicago*, Actes Sud.

تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز
أو
الديوان النفيس بإيوان باريس

رحلة العالم العلامة المشارك
النحرير الفهامة المرحوم
رفاعة بك بدوي رافع الطهطاوي
رحمه الله آمين

دار ابن زيدون
بيروت

مكتبة الكليات الأزهرية
القاهرة

الفصل السادس في ملابس الفرنسيس

من المعروف عندنا أن غطاء رأس الإفرنج البرنيطة وأن نعالهم في الأكثر الصرم السود أو الناموسات وأن لباسهم في الغالب هو الجوخ الأسود وأما الفرنساوية فإنهم في الغالب أيضاً على هذا الملبس إلا أنهم لا يلزمون ملبساً خاصاً غير أن كل إنسان يلبس باختياره ما تأذن له العادة بلبسه والغالب أن لبسهم ليس له زينة وإنما هو في غاية النظافة ومن العوائد العظيمة انتشار لبس القمصان والألبسة والصديريات تحت ملابسهم فإن الموسر يغير في الأسبوع عدة مرات وبهذا يستعينون على قطع عرق الواغش فلذلك لا أثر للقمل ونحوه إلا عند من اشتد به الفقر وملابس النساء ببلاد الفرنسيس لطيفة بها نوع من الخلاعة خصوصاً إذا تزين بأغلى ما عليهن ولكن ليس لهن كثير من الحلى، فإن حليهن هو الحلق المذهب في آذانهن ونوع من الأساور الذهب يلبسنه في أيديهن خارج الأكمام وعقد خفيف في أجيادهن وأما الخلاخل فلا يعرفونها أبداً ولبسهن في العادة الأقمشة الرقيقة من الحرير أو الشيت أو البفت الخفيف ولهن في البرد شريط فروة فيضعونه في رقابهن

ويرخين طرفيه كالمأزر حتى يصل بطرفيه إلى قرب القدمين ومن عوائدهن أن يحتزمن بحزام رفيع فوق أثوابهن حتى يظهر الخصر نحيفاً ويبرز الردف كثيفاً ومما أنشده الحاجري في ديوانه وإن كان فيه خروج قوله:

ومـــزنـر يـــا ليتني أستـاذه كيما أفوز بضمة من خصره
القس يسقيـه شبيهة خـده والمسلمين بأسرهم في أسره
فـوحقه لـولا رشاقـة قـده مارق إسلامي لشدة كفره

ومن العجائب أنه يمكن الإنسان أن يضع في الخصر وقت الحزام فترى يديه لدقته ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزام قضيباً من صفيح من البطن إلى آخر الصدر حتى يكون قوامهن دائماً معتدلاً لا اعوجاج به، ولهن كثير من الحيل ومن خصالهن التي لا يمكن للإنسان أن لا يستحسنها منهن عدم إرخائهن الشعور كعادة نساء العرب فإن نساء الفرنسيس يجمعن الشعور في وسط رؤوسهن ويضعن فيه دائماً مشطاً ونحوه، ومن عوائدهن في أيام الحر كشف الأشياء الظاهرية من البدن فيكشفن من الرأس إلى ما فوق الثدي حتى إنه يمكن أن يظهر ظهرهن وفي ليالي الرقص يخلعن عن أذرعتهن وبالجملة فلا يعد ذلك من الأمور المخلة عند أهل هذه البلاد ولكن لا يمكن لهن أبداً كشف شيءٍ من الرجلين، بل هن دائماً لابسات للجرابات الساترة للساقين خصوصاً في الخروج إلى الطرق وفي الحقيقة سيقانهن غير عظيمة أصلاً فلا يصلح لهن قول الشاعر:

لم أنسه إذ قام يكشف عامداً عن ساقه كاللؤلؤ البراق
لا تعجبوا إن قام فيه قيامتي إن القيامة يوم كشف الساق

وملابس الحزن عند الفرنسيس أن يلبس علامة الحزن مدة معلومة ولها محل معلوم فالرجل يضع علامة الحزن في برنيطته مدة معلومة والمرأة في ثيابها والولد على فقد أبيه أو أمه علامة الحزن ستة أشهر وعلى فقد الجدة أربعة أشهر ونصف والزوجة على فقد الزوج سنة وستة أسابيع، وعلى فقد الزوجة ستة أشهر، وعلى فقد الأخ أو الأخت شهرين، وعلى فقد الخال والخالة والعم والعمة ثلاثة أسابيع، وعلى فقد أولاد الأعمام والعمات والأخوال والخالات أسبوعين. ثم إن ما يباع في باريس من الجوخ كل سنة بنحو مليون فرنك تقريباً، ومن الحرير بثلاثة ملايين فرنك، ومن الفراوي بمليون فرنك، ولعل السبب في ذلك هو أن الفراوي تشترى من خصوص باريس لأهل باريس، ومن المتداول عند الفرنساوية استعمال الشعور العارية لنحو الأقرع وردي الشعر، بل قد يستعملونها في اللحي والشارب للتقليد، وقد شاعت عندهم تلك العادة من زمن لويز الرابع عشر ملك فرانسا حيث إن هذا الملك كان يلبسها ولا يخلعها من رأسه أصلاً إلا عند النوم ولا زالت إلى الآن مستعملة لكن للأقرع أورديء الشعر، ومن الغريب أنها تستعمل الآن في مصر بين نساء القاهرة.

ولا يظن الإفرنج بنسائهم ظناً سيئاً أصلاً مع أن هفواتهن كثيرة معهن فإن الإنسان منهم ولو من أعيانهم قد يثبت له فجور زوجته فيهجرها بالكلية وينفصل عنها مدة العمر فلا يعتبر الآخرون بذلك مع أنه ينبغي الاحتراس منهن كما قال الشاعر:

لا يكن ظنك إلا سيئاً بالنسا، إن كنت من أهل الفطن
ما رمى الإنسان في مهلكة قط إلا ظنه الظن الحسن

ومن كلام العرب العربا خطاباً لزوجته:

إن امرء غره منكن واحدة بعدي وبعدك في الدنيا لمغرور

ومن الأمور المستحسنة في طباعهم الشبيهة حقيقة بطباع العرب عدم ميلهم إلى حب الأحداث والتشبب فيهم أصلاً فهذا أمر منسي الذكر عندهم تأباه طبيعتهم وأخلاقهم ومن محاسن لسانهم وأشعارهم أنها تأبى تغزل الجنس في جنسه فلا يحسن في اللغة الفرنساوية قول الرجل عشقت غلاماً فإن هذا يكون من الكلام المنبوذ المشكل فلذلك إذا ترجم أحدهم كتاباً من كتبنا يقلب الكلام إلى وجه آخر فيقول في ترجمة تلك الجملة عشقت غلامة أو ذاتاً يتخلص من ذلك. فإنهم يرون هذا من فساد الأخلاق والحق معهم وذلك أن أحد الجنسين له في غير جنسه خاصة من الخواص يميل بها إليه كخاصة المغناطيس في جذب الحديد مثلاً وكخاصة الكهرباء في جذب الأشياء ونحو ذلك فإذا اتحد الجنس انعدمت الخاصة وخرج عن الحالة الطبيعية وهذا الأمر عندهم من أشد الفواحش حتى إنه قلما ذكروه صريحاً في كتبهم بل يكنون عنه بما أمكن ولا يسمع التحدث به أصلاً ويعجبني قول الشيخ عباس اليمني:

كلفت بسعدى والرباب وزينب ولم أعتبر أس العذار ولامه
ولا اخترت تشبيباً بأمرد مذهباً وإن ذم طبعي من يراه ولامه
وما حسنه عندي سوى في عجاجة وحمل قناة كالشهاب ولامه
ويغشى سعير الحرب ليس بصده حنانيك عن ضرب الرقاب ولامه

ومن خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم كما تقدم وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة ومما قاله بعض أهل المجون الفرنساوية لا تغتر بأيباء امرأة إذا سألتها قضاء الوطر ولا تستدل بذلك على عفافها ولكن على كثرة تجربتها انتهى كيف والزنا عندهم من العيوب والرذائل لا من الذنوب الأوائل خصوصاً في حق غير المتزوج فكأن نساءهن مصداق قول بعض الحكماء لا تغتر بامرأة ولا تثق بمال وإن كثر. وقال آخر النساء حبائل الشيطان، وقال الشاعر:

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن جزوعاً إذا بانت فسوف تبين
فإن هي أعطتك الليان فإنها لآخر من طلابها ستلين
وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها فليس لمخضوب البنان يمين

وبالجملة فهذه المدينة كباقي مدن فرانسا وبلاد الإفرنج العظيمة مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات وإن كانت مدينة باريس من أحكم سائر بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية

١٧

في وصف باريس

كان وصول الفارياق الى هذه المدينة الشهيرة في ذات ليلة ضباب فكانت عيناه معمشتين عن رؤية ما فيها من الخصائص . فلما اصبح اخـذ يطوف في شوارعهـــا كالمتفرّغ المتبطل فاذا بها ملآنة من المزالج والمزالق والروامج والروامق[١] والجَرائي والاطناء والرَّباي والمَلْمُوات والجَذّابات والرُجَب والرُوُب والفُخوت والحِراج واللُبَج والبَيّاحات والنِصاحات والمصايـد والفخاخ والشواصر والنوامير والقحّازات والدحاحيس والمفاقيس والشصوص والبيضاوات والقُفّاعات والمجازف والخواطيف والعواطيف والكُفُف والربَق والطبَق والعوادق والنُشَق والعلاليق والاوهاق والشباك والأشراك والشَوْدكات والاحابيل والكوابيل والشهوم والمصالي . فظهر له ان قوام كل شيء وعتاده وملاكه وقطبه في هذه العاصمة متوقف على وجود امرأة . فجميع الصُوُب والكُلَب والحوانيت والكُفُت والقرابج والكرابج والكناديج والمفاتح والمحاسب والمثابر والانبار والمخازن والمحارف والمصانع والفناتق والفنـــادق والدكاكين والقرابق والبلاّنات والمنامات والحانات والخانات والافدية والمطاعم والمشارب تديرها نساء واي نساء . وما من كَعْب او تأريج او أوارجة او أنجيدج او بُرْجان او جُذاء[٢] او بَرْنامج او عهده او محضر او جَذر او

(١) الرامج ملواح يصطاد به الجوارح وكذا الرامق .

(٢) عبارة القاموس في ب ر ج وحساب البُرجان قولك ما جُذاء كذا في كذا وما جذر كذا في كذا فجذاؤه مبلغه وجذره اصله الذي يضرب بعضه في بعض وجملته البرجان انتهى غير انه لم يحك في باب الياء غير الجداء بالدال المهملة وعبارته الجداء كغراب مبلغ حساب الضرب ثلاثة في ثلاثة جداؤه تسعة . واضرب عن ذكر الضرب بهذا المعنى في موضعه .

وصْر او قِط او فنداق او صَكّ او فذلكة او سَيّال او ترقيم او ترقين او جداء الا وتتعاطاه المرأة هنا . واللبيب من الرجال من اتخذ في حانوته او محترفه رابحا مليحاً يلوّح به للشارين والمجتازين في السبيل . ولا فرق بين ان يكون ذلك الرامج من اهل بيته او غريباً وانما العبرة بانفقاس الفخ على اعناقهم .

هذا وقد اختصت نساء باريس بصفات لا يشاركنهن فيها احد من نساء الافرنج . فمن ذلك انهن يتكلمن بالغنّة والخنّة والنشيج والهَزَج والهُزامج والترنجح والتطريب والسَكْت والحَبرة والنبرة والاجَشّ والتعثيث والترجيع والاضجاع والقُطْعة والتغريد والتهويد والمدّ والترسيل والترتيل والفصل والوصل والزَّجَل والهلهلة والادغام والترخيم والتدنيم والترنيم والرَّوْم والاشباع والتفخيم والامالة والتنعيم والتنغيم والتحزين والحنين والجَدَن والتلحين والطَشْنَن والشجو والترنية . حتى ينتشي السامع فلا يعلم بعد ذلك هل هن يفككن ازراره او فقاره . ومن ذلك تغيير الزي في كل برهة وبهن تقتدي سائر النساء فلو لبست احداهن مثلاً عَبْعبا او حزّقت ثوبها لعبّ الناس حب ذلك العبعب وصار التحزيق سنة فيهم . وعنهن يؤخذ ايضاً تقصيب الشعر وسَبْته وتسريحه وتسميده وتجميره وضفره وتطريره وتنفيشه وعقصه وتصفيفه وزرقلته وتشكيله وفرقه وكَدْحه وكدهه وادّراؤه وجدله وتفتيله وتغبيته ومشطه الكُمْكُبَة والمُقدّمة واتخاذ قصّة منه او قزّعة او قُنزعة وجعله مكرهفا او مسبلا . ومن ذلك انه لطول ترددهن على مواضع الرقص يحسبن كل مكان يطأنه مرقصاً . فترى المرأة منهن تمشي في الاسواق والشوارع وهي تميد وتميل وتتخلع وتتفكك . ويا ليت مولانا صاحب القاموس كان يعرف البُلْكَى والمازركَى والسّوتِشكى والكدريل والريدوقَى والفلس وغيرها من ضروب الرقص حتى كنت أرويها عنه هنا في حق الماشيات في باريس . ومن ذلك تحكّمهن على الرجال وتعزّزهن عليهم في كل حال وبال . فترى الرجل يماشي المرأة وقلبه بين رجليها . واذا خلا معها في البيت فهي الآمرة الناهية المستعلية

القاضية . وهو المُصحِب المِصحاب المُدَرْبح المُدَلْبح المُدمّح المكبـــوح المنوج المصوّب المدبّخ المتزيّخ المختضَد المُسجد المتسَر المشروس المتضع . ولا يزلن طول الدهر وحـاماً ولا حَبَل . وبرمن ان يكون لهن كل شيء صِهابيّا مؤربّا مرفـّلا موفـّرا مؤنّفلا منسبغا ضافيا مرتـبزا وافيا تامّا كاملا . حتى ان اللغة الفرنساوية مبنيّة على هذا الوحم. وذلك انهم يحذفون في اللفظ اواخر جميع الالفاظ المذكورة وينطقون بها في المؤنثة . وعلى ذلـــك قول الفارياق

عند الفرنسيس المؤنث واجب تبليغ آخره الى الاسماع
وهو الدليل على تَوَوق نسائهم طبعاً على التبليغ والاشباع
او انه صفة الكمال لهن ان يك ممكنا يومالذات قناع

وكان احد التيتائيين من نحاتهم غاظه ذلـك فجعل من بعض قواعد لغتهم تغليب المذكر على المؤنث . ولكن هيهات فـان امرأة واحدة هنا تقوى على عشرين ذكراً . ومن ذلك ان عنوان جمالهن مكتوب على جباههن نظما ونثرا. فمن النظم

مَلَكُ الجمال اعزّ من ملك له جند واعوان وعرش ارفع
ذو المُلك تتبعه الجنود تكلفا ولذي الجمال الناس طوعاً تتبع

ومنه

من حارب العين خانته مضاربه وليس يحديه شحذ السيف عن جلده
فضرب السيف مشحوذ على حجر ومضرب الطرف مشحوذ على كبده

ومن النثر . الكلام بالغنّة ، شفاء من العُنّة. فرط التنهيد أبلغ في التهنيد. الخَدَل جلاء المقل . ضخم الحاة يفتح اللهاة . صغر الاقدام يقزح الادام . كم صريع في السوق من كشف السوق . ان ابراز الترائب كاشف غمّ النوائب ان العَبعَب املأ للعين واحب . ان الاعجان داعي الافتتان . ان النوّق اصل الشَنَق . لا تفكن الا ويزيله التبهكن . التهم ادعى للتهيم والتليّم

المغاضنة دليل المحاضنة . غلائل الصيف امضى من السيف . لافرار بعدّ الافترار . لا عاصم بعد كشف المعاصم . توهج الطيب . اشوق للحبيب . رب ابتسامة جلبت غرامة . العين غزّالة . والقامة فتّالة . الحسن معبود . والدينار منقود . الدينار فكّاك الازرار . من اكثر من الصله نال ما امله البضع لذي الدنيا والدنيا لذي البضع . من ذاق عرف ومن غازل هرف . الى الملهى الى الملهى . فبادر ثمّ لا تله . وعللها بكاس ثم عما شئت فاسألها .

والحاصل ان الفرق بين عنوان جمال الفرنساويات وجمال الانكليزيات هو ان الاول من قبيل التداوي من الشيء بضده . والثاني من قبيل التداوي منه بجنسه . وذلك ان العنوان الاول هو ناطق عن الونى والفتور والترهل والتربخ والاسترسال والاسترخاء والاسترخاخ والاسترخاف والرشرشة والنشنشة والانخرار والشملطة والثملطة والحتت والهنبتة واللوثة والهلاث والابثنجاج والطرشحة والامرخداد والترترة والتختر والفيشوشة والتمّعة والخراعة واللخع والطريقة والرهوكة والثرطلة والغَدَن والانثطاء المستدعية لنقائضها من الاشتداد والتصلّب والاقشرار والتأتّب والتقسّح والتقسّب والتوتر والتعلّب والتعرّد والتعلّد والانزاز والتأدد والعَصّ والاستعزاز والتأيّد والكأن والاتكاع والتكلد . وجمال اولئك عنوان على هذه الصفات المستدعية لنظائرها وكلاهما في المرأة حسن . ومن ذلك انهن يرين التقليد في الحب والزيّ معرّة فكل واحدة منهن تجتهد في فنّها حتى تصير قدوة لغيرها . اما في الزي فمنهن من تقبّب صدرها بقدر ما تقبّب نساء الانكليز بتائلهن . ومنهن من تتخذ لها قبّتين من قبل ومن دبر . حتى تكون اذا مشت عائقة اساتها ومواجيها . وكشف الساق لابراز الحماة ونظافة الجوارب مطرد لهنّ . فاما في الحبّ فمنهن من تريد على صفات المدقم الصفة التي ذكرها ابو نواس في الهمزية . ومنهن من يوثر التجضّم الكمري أو الامتلاج القنبي . واكثر الناس حرصاً على هذا الشيوخ المحنكون . فامتصاصهم وتبظيرهم ليس من السب في شيء . ومنهن من تجمع بين اللذتين الخرنوفية والفنقورية ولها سعران .

ومنهن من تزيد على ذلك ما أراد الشيخ جمال الدين ابن نباتة من شوص الفرخ وله ثلاثة اسعار . ومنهن من تزيد عليه الشوص بالاخمصين وله اربعة . ومنهن من تمكن من قفط النَوْدلين وثغر ما بينهما مجردا . ومنهن من تضيفه الى اللذتين المذكورتين مع شوص الفرخ باناملها واخامص وهو اغلى ما يكون . ومنهن من تتفاحل وتتقمّد على اخرى مثلها . وهذا النوع عزيز لا يراه الا الموسرون . ومنهن من تتعاطى الحرفة الترسية وهو قرع الترس بالترس .

ومن اغرب ما يكون ان بعض شيوخ الفرنساوية الذين يشب فكرهم وتخيلهم لهرم اجسامهم ووهن حركتهم يوثرون على جميع الانواع المذكورة التلفّظ بالعذرة وذلك بان يتضجع أحدهم وهو عريان ويامر من تستوي فوقه وتملا فمه . ومنهم من يستغني عنه بشرب الزغرب من مشخبه زُغلة زُغله أو بمص القنب . وقد يجتمع رجال بواحدة فيقيمونها بين ايديهم عريانة ويقعد لدى قبلها ودبرها اثنان . ويأخذ آخر في صب الشراب من فوق صدرها وظهرها. فيبادر إليه الرجلان فاغرين افواههما ويشربانه عند مروره على السّمّين والنساء المثريات المغتلمات يستعملن رجالاً يقودون اليهن كل من رأوه ابتع من الرجال ولا سيما من اهل الريف . فيدخلون عليهن في بعض الديار وهن متبرقعات كيلا يُعرَفن ثم يأجرنهم على ذلك . وفي الجملة فان كل ما يخطر ببال النحرير من أمور الفسق يراه الانسان في باريس بعينه بالعَيْن .

واعلم ان اهل باريس قد اصطلحوا على أمور في المعاش والنساء تميزوا بها عمن سواهم . اما في امر المعاش فان من يأكل منهم في المطاعم الشائعة فانه يشارط صاحب المحل أو بالحري صاحبته على ان يعطيها في الشهر قدراً معلوماً ويأكل عندها شيئاً معلوماً . فتعطيه تذاكر توذن بعدد المرات فيدفع ثمنها ثم يعيدها عليها فيودّي عن كل غداء أو عشاء تذكرة . فيتوفر عليه في ذلك ربع المصروف . وقس عليه الحمامات والملاهي وما أشبهها . فأما أمر النساء فان أصحاب البيم والشراء لما كانوا قد اتخذوا لادارة اشغالهم نساء حساناً كما سبقت الاشارة اليه ، فاذا خرجن في الليل بعد انقضاء اشغالهن

ترصدتهن الرجـــال ودعوهن الى مواضع الاكل والقهوة والرقص واللعب . فتذهب كل واحدة مع من تحب . فمتى رافقته الى احد هذه المواضع علم ان حقه عليها صار ضربة لازب . فاما ان يستوفيه منها تلـــك الليلة فقط أو يوافقها على اعادة الوصل في كل اسبوع مثلاً مرتين او ثلاثا وان يعطيهـــا في آخر الشهر اجرة معلومة . وما بقي لها من الساعات فانهـــا توجره لآخرين باجرة معيّنة . فترى للواحدة منهن عدة عشاق تواصلهم في اوقات مختلفة من الليل والنهار . ومع ذلك فلا تزال تلقب بُدمْوازل وهي كلمـــة تطلق على الابكار على وجه التعظيم . ومعناها سيدة غير ذات بعل. ومنهم من يتصدى لمعرفة هؤلاء البنات من المراقص . فيعمد الرجل الى بنت ويدعوها للرقص . فاذا اعجبته واعجبها دعاها للشراب في موضع مخصوص في المرقص وعقـد عليها عقد الزيارة الشهري . ومن عامل واحدة منهن مشاهرة لم ينفق عليهـا نصف ما ينفقه لو قضاها على كل مرة على حدتها وللنساء رخصة في باريس ان يدخلن جميع المراقص العمومية من دون ان يدفعن شيئاً اجتذاباً للرجـــال بكثرتهن . ولكن عليهن ان يرقصن معهم اذا استرقصوهن . الا اذا اعتذرن لهم بعذر يقبلونه كأنْ تقول المدعوة مثلاً قد دعاني آخر من قبلك فلا بد لي من ان ارقص معه أو نحو ذلك . ثم لا حرج ايضاً على من اكترى في منزل بيتاً مفروشاً كان او غير مفروش ان تزوره صاحبتـــه في مسكنه . سواء كانت من النوع الذي ذكرناه اعني من النساء اللائي بمنزلة بين الحرائر والزواني أو من غيره . وان تبيت عنده على علم من الجيران والسكان . فان منزلة هذا عند منزلة أهل باريس كمنزلة المتزوج . ولا فرق عند اهـل باريس بين امرأة متزوجة لها سبعة بنين وسبع بنات تربيهم في تقوى الله وطاعة الملك وبين قحبة تبيع عرضها لكل ابن سبيل وتتفنشخ لكل مجتاز في الطريق كما تقول التوراة .

وهناك اسباب اخرى كثيرة للفساد في الديار . وذلك انه لما كانت جميع الاشغال في باريس تديرها النساء وكان منهن غسالات وخدامات لهن يأخذن

ثياب السكان وخياطات وفرّاشات وبياعات للمأكول والمشروب والملبوس ، امكن للرجل ان يصاحب واحدة منهن فتأتيه مياومة اذا شاء بحجة انها تقضيه شيئاً او تبيع له حاجة او ملايلة او مشاهرة او مساوعة او محاينة وذلك ممنوع في لندرة . بل ربما صاحب الرجل امرأة من نفس الدار التي يسكنها . لان ديار هذه المدينة العامرة لما كانت تشتمل على عدة طبقات وكان أصغرها يحوي في الاقل عشرين نفساً ما بين رجال ونساء . امكن للرجل ان يعاشر احدى جاراته . بل المتزوجون المقيمون في هذه الديار لا يأمنون على نسائهم وبناتهم لان الرجل اذا خرج من بيته وخالفه فيه جاره الى زوجته مئة مرة في اليوم لم يمكنه ان يعلم ذلك لقرب ما بين المسكنين . ولهذا كان اهل باريس اقلّ غيرة على نسائهم من جميع الناس . لانهم ربوا على هذا ولا مناص لهم منه . ولا يمكنهم ان يربوا اطفالهم عندهم خوفاً من تضجر الجيران منهم . وانما يبعثونهم الى الريف من اول اسبوع ميلادهم فيربون في احجار المراضع وهي عادة حميدة من جهة ان الاطفال يتقوّون هناك بطيب الهواء . وهناك سبب آخر وهو ان المُطفل بترشيحها ولدها وتربيته تخسر من نفع حرفتها أكثر مما تعطيه للظئر لان نساء باريس يباشرن جميع الحرف ولا يرين في التكسب عاراً باي وجه كان . وهنّ في البيع والشراء اشط من الرجال ومن تكن جميلة تتقاضَ على النظر الى جمالها شيئاً زائداً على الثمن . ثم ان حالة الرجال مع النساء على المنوال الذي ذكرناه تعد عند هؤلاء الناس من المصالح المهمّة المرتّبة المطردة . بمعنى انه ليس من دار الاّ ويحصل فيها وصال بين الرجال والنساء مع مراعاة حرمة كل من الزائر والمزور . ومع عدم الاخلال بالوقت الموقوت لكيلا يحصل تعطيل للمزور في شغله . ومع مجانبة ما يسوء الجيران من لغط وعربدة .ولا تكاد ترى في باريس كلها فقيرة او مومسة تطوف في الليل وهي سكرى كما ترى في لندرة . وندر وجود احداهنّ في متأخر الليل . وقلّ من آذت زائرها او قاصدها .

وهناك فرق آخر بين نساء الفرنسيس والانكليز من جهة الخُلق لا الخَلق

فالظاهر من نساء الانكليز في الغالب الكِبر والأنَفَة والصُلف . والظاهر من نساء الفرنسيس اللين والبشاشة . الا ان نساء الانكليز لا يتدللن على الرجال ولا يحشمنهم الترف والتحف والولائم والملاهي والمنازه والفرج . فأكلة من الكباب وكرعة من المزر تكفيان في استجلاب رضاهن . وليس عندهن من الروم والمحال . والخلب والاختتال . والدها والنكر والاحتيال ما عند نساء باريس .فاما ان تحب احداهن مثلا شخصاً وترضى معه بالكثير والقليل واما ان تصرمه . فاما نساء باريس فمهما يظهر منهن من الملاينة والمباغمة ، والملاطفة والملاءمة . فاذا عاشرت واحدة منهن وشعرَتْ بانك ارتبقت في هواها ورُقبت تبغنجت عليك وتدللت . وتصلّفت وتمحّلت . واوهمتك ان مجرد كلامها معك منّة . . وان ارضاءها والخضوع لها سنة . وان كثيراً في عشقها متيمون ناحلون . هائمون ناسمون . حتى تستقل عليها كل كثير من الصلات والهدايا فتقبل منك ما تقبل وانت لها من الشاكرين . واذا دعوتها لوليمة فلا بد من اروائها من الرحيق المختوم . وتوحيمها بافخر المطعوم . فتلتهم ما تلتهم وتشتفّ ما تشتف وهي متشبعة متعففة . متمنعة متظرفة . فاذا ضحكت حسبت ان ليس لضحكها من نظير . واذا مشت ودت لو كان خطوها على الديباج والحرير . حتى ان هذا التصلّف ايضاً صفة ملازمة للمتزوجات . فان المرأة المتزوجة في باريس تغرّم زوجها على كسوتها فقط ما ينفقه المتزوج من الانكليز على جميع اهله . فدأب الرجل في باريس وهمه وشغله ارضاء زوجته وهيهات ان ترضى وما احسن ما قيل في هذا المعنى :

لا يعجب الزوج الا ان تكون بمن تحب محفوفة آولا فاعنات
وكيف يرضى امرء يحمي حقيقته بالقِرن والقَرن افتوا ايها النات

وقال

وداخلة الانسان تفسد كلها اذا اصبحت زوج له أم خارجه
ويخرج عنه الحلم لو قيل مرة له هي في البيت الفلاني والجِه

ولهذا يقال في المثل السائر عند الفرنساوية ان باريس نعيم النساء ومطهر الرجال وجحيم الخيل . ولما كانت حالة الرجال مع النساء هكذا كان ثلاثة ارباع سكان باريس مسافحين . ونصف الربع الاخر متزوجين زواجاً شرعياً والباقي منقطعون عن النكاح . كذا اخبرني من يوثق بكلامه . ثم ان المومسة من الانكليز تعرف نفسها انها غير حرة وتعرف ايضاً ان الناس يعرفونهـا كذلك. فلا تكلفهم احترامها . ولا تسومهم اعظامها. فاما البغي من الفرنسيس فعندها ان مجرد استبضاعها للبضع يؤهلها لان يكرمها الناس ويداروها . ويجلوها ويسانوها . وذلك لعدم استغنائهم عنها . وجرّهم النفع منها . وقد تقدم ان الفرنساوية لا يفرقون بين الحرة والبغي وبقي هنا ان نقول انهم اشد الناس شبقاً الى البعال . واقرمهم الى السفاح . وناهيك انهم في الفتنة الكبيرة التي حدثت في سنة ١٧٩٣ اقاموا امرأة عريانة على مذبح احـدى الكنائس وسجدوا لها . فصوّر لخاطرك ايها القارىء كيف تكون الرجال والنساء في هذه المدينة في ليالي الشتاء البارد الطويلة وكم من ملهى يغص بهم وبهن وكم من مآب . وكم من مائدة تميد لهم بالطعام والشراب. وكم من سرر تهتزّ . ومضاجع تأزّ . واجناب تلزّ . واوطاب تمزّ . واوتار تنزّ . انشدني الفارياق لنفسه في وصف باريس واجازني روايته :

وفي باريس لذات كما في ... جنان الخلد جير وحور عين
ولكن شأنهن دوام طمث ... لكل اربعون من القرين

وقال في الراقصات

لله در الراقصات لنـا على ... نغم المثاني حيث تجلى الكوب
لو كان يوماً وطؤهن عليّ لم ... تثقل لديّ من الزمان خطوب

وقال في رامج

ذي الباريزية طلعتهـا ... كالصبح بهـا قلبي مغرم
في الليل اريـد تحيتها ... فاقول لها بُن جوْر مادم

قال وكما أن الغريب المسكين ينشرح صدره وينجلي بصره بمشاهدة تلك الحكاكات للاعتاب في لندرة على الصفة التي تقدم ذكرها . كذلك تقرّ عينه برؤية امثالهن في باريس طائفات في الشوارع والاسواق من دون غطـــاء على رؤسهن ولا ساتر لخصورهن وما يليها . بخلاف عادة النساء في لندرة فانهن لا يخرجن الا ملتحفات . قال وعندي ان هاتين الخلتين وهمـــا حك الاعتاب والخروج من دون التحاف هما السبب في قلة وجود العميان في هاتين المدينتين السعيدتين . وقلما ترى في رجالها احول او ازور او احوص او اخوص او ارمص او اكمس او أعشى او اخفش او اعفش او اعمش او اعبش او اغمش او ارمش او امتش او ذادوش او مـــدش او طخشّ او غطش او غفش او طَفَنْشاً او غطمّشاً او مغطرشاً . او مطغمشاً او مطرفشاً او مطفرفشاً او مطنفشاً او مدنفشاً او مدنقشاً . فعلى كل من كان في بلادنا اعمش ذا عين ان يقصد هذه البلاد ليجلو بصره بهذه المناظر الانيقة . وليستصحب معـــه أيضاً لهذه الجلاء جلاء اي لقباً ينبي عن شرف وسيادة . فان القوم يعظمون هذه الزّمة ولا يرون للانسان فضلا بغيرها . وعلى فرض تحرّجه من الانتحال والتزوير فان غناه يكسبه اياها من عندهم . لانه متى كان غنيـــاً وجعل دأبه ان يتردد على مواضع اللهو والحظ لم يلبث ان يتعرف بزمرة من الكبراء السعداء وان يزورهم في مغانيهم . و حِ يسمونه بسمة شرف تشريفاً لهوتشرّفاً به اذ لا يزورهم الا الشريف مثلهم . فاما حرص النساء على هذه الزمة وخصوصاً نساء الانكليز فهو اوسع من ان يحصر في هذا الكتاب .

وما أوتوا من زينة الحياة الدنيا والتوسع فيها أشهر من أن يذكر ولو أطلقنا عنان القلم في تفاصيل جمل هذه المدينة وما احتوت عليه من الزينة لم يقف عند حد ولا فضينا الى الطول الممل، والاكثار من مدح العاجل المضل. وما تم إلا زخارف الحياة الدنيا وبهرجتها وسرابها الزائل وترهتها، ولكن في الاطلاع على هذه الأمور ومعرفتها معرفة قدر نعمة الله على المؤمنين بتخليصهم من فتن الافتتان بزينتها والاغترار بعرضها الفاني الموجب للاعراض عن الله تعالى مع تحقق مصير هؤلاء إلى غضب الله وعذابه المقيم فانا رأينا أناسا من العباد عقولهم كعقولنا حكم عليهم بذلك وأنقدنا منه بفضله وكرمه وكره لنا كفرهم وفسوقهم وجبلنا على عداوة حالهم ظاهرا وباطنا فلو لم يحصل لنا غير هذا القدر لكان متجرا رابحا، وسبيلا في طريق الخيرات ناجحا على أن من له أدنى مسكة من عقل وأقل نصيب من ميز وفضل، لا يرضى بالعيش بحالهم ولا يغتر بسراب محالهم ويكفي في تقبيح سيرتهم وخبث سريرتهم غلبة النساء عليهم وجريهن مطلقات الأعنة في ميادين الفجور والفواحش من غير أن يقدر أحد على منعهن مما يردنه من ذلك ولا تعنيفهن.وطاعة النصارى لنسوانهم ومبالغتهم في اتباع مرادهن أشهر من أن تذكر ويقولون أن لهذه المدينة زيادة في ذلك حتى أنهم يقولون في أمثالهم باريز جنة النساء وجهنم الخيل والمرأة هي رئيسة البيت والرجل تابع لها حتى أن من دخل عندهم بيت أحد فأدبه أن يقدم السلام على المرأة قبل زوجها وهي التي تقابل الضيوف وتكلمهم وترحب بهم سواء كانوا رجالا أو نساء والرجل ساع في طاعتها ممتثل أمرها متأدب معها بأحسن الآداب لا يخالفها في شيء ومن كان بخلاف ذلك عدوه من أوباش الناس وسفهائهم مع قلة العفة فيهن فقد بلغنا أن جلهن يتعاطين الفواحش والغيرة في أزواجهن نادرة جدا فيرى رجل زوجته آخذة بيد رجل آخر ذاهبة معه تتحدث في الخلا والملا، فلا ينكر عليها ذلك وربما وجه بعضهم زوجته مع جاره أو صاحبه لمتنزه أو فرجة إن كان له هو شغل ولا يقدر أن يذكرها بشيء من ذلك ولا يسمها به ولو سمعه عنها وعندهم لذلك قوانين وأحكام مرتبة مثل إن وجد الانسان رجلا مع امرأته فلابد أن يثبت ذلك ببينة ويرفعها للحاكم فإن كان الرجل هو الذي أتاها لبيتها فيسجن ويعطى ذعيرة معينة لذلك وللزوج تطليقها حينئذ إن أراد ذلك وتسقط عنه نفقتها وكذلك إن أتت الرجل لبيته فله تطليقها أيضا ولا حرج على الرجل الذي ذهبت إليه، أما إن طلقها من غير أن يثبت عليها ذلك فتلزمه نفقتها ما دامت حية

(تابع المقتطف من كتاب »تحفة الملك العزيز بمملكة باريز« لإدريس العمراوي)

[...] كما أنه لا يقدر أن يتزوج اثنتين ولو كان ملكا وهذا من الأسباب الحاملة للرجل على عدم الغيرة على المرأة وعدم البحث عن حالها وملازمة قاعتها واتّباع شهواتها والزنى في الرجال عندهم غير معاب وإنما يعيبونه على المتزوجين مع أنه قليل من يتنزه عنه منهم أما العزّاب فيتجاهرون به ولا عليهم وقد ذكر أن لباريز ثلاثين ألف عاهر كلهن بأيديهن ورقات من المخزن بالإذن في ذلك ولهن ترتيب في تعاطيه وهذا العدد دون الغير المشتهرات به والبنت عندهم إذا بلغت ثمانية عشر عاما لا حكم لأبويها عليها ولا يقدرون على منعها من ذلك إن أرادت وعوائدهم في هذا الباب يثقل سماعها على الآذان ولا يجمل للأديب ذكرها في السرّ ولا في الإعلان وإنما أشرنا إلى هذه النبذة منها تنبيها للغافل وتبكيتا للجاهل.

محمد المويلحي

حديث عيسى بن هشام

باريس

قال عيسى بن هشام : سبحان من لا تجري الأمور إلا بتقديره ، ولا تنفذ العزمات إلّا بتيسيره ، فقد يسر الله لنا الرّحلة إلى الدّيار الاوروبيّة ، لنشهد مظاهر المدنية الغربية ، وبلغنا من سفرنا المدى ، فألقينا بباريس العصا ، وشرعنا نجوب منها الطّرقات الجامعة والسّاحات الواسعة ، فلا القبائل تدعى وتهرع ، ولا الجيوش تحشد وتجمع ، ولا الموتى وهم ينشرون ، ولا الخلق وهم يحشرون ، يضاهي ما القوم فيه من ازدحام واقتحام ، واصطدام والتحام ، متدفّقين في سيرهم تدفّق السّيل ، تحت أضواء محت آية الليل فلا ليل ، يخشى فيها على الأبصار ، أن تعشو من شدّة الأنوار ، وربّما انخدعت بها الدّيكة فأخذت في الصّياح إيذانا بانبلاج الصّباح .

فإذا نظرت إلى الشّارع من العلوّ ، لم تبال بالغلوّ ، إن قلت بحر مسجور ، قام عليه شاطئان من نور ، وإذا أبصرته من أسفله عند أوّله ، قلت أسراب الدّو ، تصعد إلى الجوّ ، بين الكواكب الزهراء ، من كرات الكهرباء ، والبيوت عن حافّتيه تشارف جوّ السّحاب ، وتحاول أن تعلق من السماء بأسباب ، فارعة باسقة ، متلاصقة متناسقة ، كأنها في انتساقها سطور الخطّ ، والأزهار على جدرانها شكل ونقط ، فأين منه ما بناه لفرعون هامان ، وشاده جنّ سليمان لسليمان ، ورفعه سنمّار للنّعمان ؛ وأين شماريخ ثبير ، من سنام البعير ، ومعارج الجبال ، من مدارج النّمال، لا بل أين البحر العباب ، من لامع السراب ، وأجرام الكواكب ، من بيوت العناكب ؟

وشاهدنا المارّة يتسابقون في هذا الموقف المتلاطم ، والمأزق المتزاحم ، من كل شيخ وكهل وصبيّ وطفل ، وفتى وفتاة ، بين ركبان ومشاة ، والألوف من صنوف العجل تخترق صنوف الناس ، وتنفذ بينهم نفاذ السّهام عن الأقواس ، طائرة بقوّة الكهرباء أو البخار أو الأفراس .

ولما لم يسابِقْهُـــنَّ شَيءٌ
من الحيوان سابَقْنَ الظِّلَالَا

وكلّ سائر منهم في اضطراب العصفور ، وتلفت القطا المذعور ، إن خانته لفتته ، أدركته منيّته ، وإن عثرت قدمه ، هريق دمه ، وإن شمخ شاخ بأنفه ، وقع في حتفه ، فهم يتلمّسون شاكلتي الطّريق كما يتلمّس الشّاطىء الغريق ، والحوانيب على الجانبين متبرجة ببدائع البضائع ، ونفائس الصّنائع ، تغوي الزاهد فيشتهيها ، وتغري الشّحيح فيشتريها ، والحانات من بينها ممتلئة بالنفوس ، مشحونة بالجلوس ، في يد كل واحد منهم كأس الصّهباء ، وفي الأخرى جريدة المساء ، ونحن في هذا الموقف تكاد تطيش منا العقول ، من هول الدّهش والذّهول ؛ وتطير منّا الألباب من شدة الوجل والاضطّراب :

في ساحةٍ لو أنَّ لقمانًا بها
وهو الحكيمُ لكَانَ غَيرَ حَكِيمِ

ومال بنا طلب الراحة ، إلى حان في تلك السّاحة ، فلم نجد به مكانا خاليا من الزّحام ، فعكفنا مدة واقفين على الأقدام ، وكدنا نذهب عنه آيسين ، لولا أن تحرّك بعض الجالسين ، فذهبوا لشأنهم ، وخلفانهم في مكانهم ، وجلسنا في هذا المأمن نتصفّح وجوه الحاضرين ، وأجناس المارّين ، فإذا عدد ربات الحجال يربو على عدد الرّجال ، من كلّ ذات حسن وجمال ، وتيه ودلال ، وقدّ متأوّد ، وخدّ متورّد .